هل جدتي من بنات الجن؟

بقلم: فايزة حربي بمان

لم تكن تحكِ جدتي لي أو لأخوتي قصص ما قبل النوم. لم يكن لديها وقت لذلك! لقد كنا فقط أربع أحفاد من أصل بض ع وثلاثون حفيد وحفيدة .كنا نحب منزل جدتي كثيراً لانه أصبح بيتي الثاني حينما قرر والديّ أن ي ستقر والدى وحده في أحدى دول النفط بعدما أصبحت الحياة هناك بالنسبة لأمي بدون أقرباء شبه مستحيلة، سافر والدى وأغلق منزلنا بالإسكندرية بمفاتيح واقفال موصدة. أصطحبنا والدي بسيارته الحبلي بحقائب سفر كبيرة إلى منزل جدتي الواقع بمدينة صغيرة بمحافظة كفرالشيخ، أكبر محافظات الدلتا المصرية. كان منزل الجدة كبير جدا رغم صغر حجمه، تتزينت جدرانه بصور ضوئية لرجال ونساء لا أعرفهم. تجمعهم صفة واحدة ألا وهي أن جميعهم في عمر الشباب، يبتسمون في وقار وينظرون إلينا نحن الأطفال في هدوء. لا أدري لماذا لم أسال عن هوية أصحاب الصور الملعقة. إلا أنى خمنت أن ترتيب أماكنهم على الحائط توحي بشيئ عن مكانتهم في قلب جدتي.

حين تدلف من باب الشقة عبر ممر قصير تجد أمامك غرفتان مغلقتان دوما، أحدهما هي غرفة نومها والأخرى أصبحت مع الوقت غرفة نوم أمى وأخوتي. يفصل الغرفتان حائط معلقة عليه ساعة خشبية بنية اللون ذات بندول لا يقف عن الدوران وحين تتم العقارب والبندول دورتها تعطى صوت رنان دلالة على مرور ساعة من الزمن. ثم أسفل تلك الساعة بمساحة لا تتجاوز العشر

سنتيمترات توجد صورة لشابة ذات شعر داكن معقوف خلف أذنيها. تبتسم الفتاة بأدب ونظرها موجه نحو جانب الإطار الأيمن. وحالما تتوقف عن متابعة الصورة تجد نفسك في وسطالصالة. في حالة دخولك إلى الصالة بالحذاء من الأفُضل لك خلعه ووضعه أمام عتبة الباب ثمالعودة هنا مرة أخري. و ها نحن في وسط الصالة،علي الجانب الأيسر توجد ستار أبيض سميكفي حال فتح الستار ستجد أمامك البراد،النملية[1]، ماكينة الخياطة وأخيرا شباك خشبي بعرض الحائط يسمح لأشعة الشمس بالمرور إلى باقى الشقة التي تحاول أمي جعلها نظيفة قدر المستطاع.

وحين تسدير ويكون ذلك الشباك الخشبي الكبير خلف ك ثم تسير عدة خطوات قليلة، تجد أمامك في نهاية الصالة على الجانب الأيسر دولاب زجاج ي به أكواب كريستال وصحون من البورسلين مزينة بزهور ملونة. لا يسمح لنا نحن الأطفال الشرب أو تناول الطعام في تلك الأطباق الجميلة. فنحن لدينا أطباق في المطبخ وملاعق خاصة و أكوب من صفيح! الأطفال لا يسمح لهم بتناول الشاي ولا الخبز الأفرنجي ولا حتي تناول الكثير من السمك المملح في شم النسيم! هكذا كان نظام الجدة .أما فوق ذلك الدولاب الزجاجى كانت لوحة زيتية لطعام وفاكهة علي طاولة. وقد كان على جانبي الدولاب الزجاجي كنبة مريحة يقابلها طاولة الطعام. وقد زينت جدتي الحائط المقابل للطاولة الطعام بإطار خشبي مذهب به صورة قديمة لجندي يرتدي زيه العسكري والطربوش ويمتطى حصان عربيٍ جميل،تبدو ملامح ذلك الجندي ذول الشارب الكبير مزيج بي ن الوسامة والشدة عرفت من أمي بعد ذلك أه هذ ا الجندي هو جد جدتي.كان من جنو د الذين يذهبون كل عام في مهمة تجعل عائلة الجد الأكبر مصدر فخر وإعجاب الجميع. لقد كان يخرج ذلك الجد على إحدي الجمال مع مجموعة كبيرة في رحلة مقدسة تنطلق من القاهرة إلى مكة المكرمة سنوياً ً لارسال كسوة الكعبة أو المحمل .فبعد إعداد كسوة الكعبة يتم وضعها يكون وضعها على المحمل ويكون المحمل عبارة عن محفة ذات قمة هرمية زُينت بأبهى الزخارف ومغطاة بقماش حريري موشى بالذهب نُقش على جانبيه آيات من القرآن تعلوه قبة فضية. كما يزين البعير الذي يحمل

[1] دولاب خشبي يستخدم لحفظ مواد الطعام الجافة .

الكسوة بأفخر وأفضل الزينة. ثم يلي المحمل قائد الجمال ثم الجنود على جمالهم الذين كان جد جدتي الأكبر أحدهم يسبقهم جنود من المشاة والسواري وفرقة من

الموسيقيين تمتطى الجمال، ورجال من القضاء والعسكرية، والشخصيات الدينية والملكيةبملابسهم الرسمية والنياشين، ثم طوائف الدراويش. وكان المكان المخصص لبدء رحيل القافلة التي تبدأ برا وتنتهي بحراً هو القلعة في القاهرة. وحي ن يعود الجد لا تنقطع الزيارات عن منزلهالذي يعج بالزوار المشتاقين لزيارة بيت الله الحرام ويملوهم الفخر أن أحد إبناء بلدهم من الجنود الجمالة التي أرسلت الكسوة إلى بيت الله الحرام في مكة. ثم يلى صورة الجد الأكبر إطار أخر ذهبي لشاب يرتدي قفطان أبيض ثم إطار أخر لشاب يرتدي قميص وتظهر هيئته م ن أنه م ن أهل المدن .

لقد كان منزلي جدتي يقبع في بلدة صغيرة بوسط الدلتا تحيطها مئات القري.وكثيرا ما كانت جدتي تفتخر أمام أهلها من سكان القاهرة والإسكندرية بأنها من بلدة وليس من قرية كما يعتقد البعض. فزوجها لديه الحانة الخاصة به ولديه عدد من العمال، الذي يرسل إحدهم كل أسبوع للسوق لشراء إحتياجته ا وتأتي سيدة لمساعدة جدتي في غسل الملابس.لقد كانت سيدة مرفهة وجميلة، تفتخر ببشرتها الداكنة وعيناها البنيتان التي تحرص علي تكحيلهما بكحل تصنعه بنفسها.وشعرها المجعد الذي تصفه بأنه كموج البحر. كما أن كان لديها أزياء خاصة ترتديها فقط حين تسافر القاهرة أو الإسكندري ة! وكذلك كان لها طقوس خاصة قبل السفر! لقد كان السفر للمدن الكبير بالنسبة لها مهرجان أو عيد .حيث تبدء في تربية الطيورعلي سطح منزلها قبل موعد السف ر بشهور وتذهب إلى الخياطة كي تحيك فستان جديد. وتعد الزبد بنفسها وتخبز الفطير المشلتت وتبعث لإحدي الفلاحات لشراء الجبن القريش.وفى ليلة السفر، تصعد فوق خزانة ملابسها لتحضر السلة المصنوعة من الخوص. تنظفها من الغبار ثم تفرش في أرضيتها جلباب قديم وتبدء بترتيب السلة. الزبد أولا ثم يليه الجبن، ثم البيض وتترك مكان خالياً للطيور التي سوف تذبحها في الصباح قبل

السفر.ويوم السفر تصحو قبيل أذان الفجر لإداء الصلاة، ثم تذبح الطيور التي قد أطعمتها عدة شهور، ثم تضعها في المكان المخصص لها بالسلة. ثم تستحم وترتدي الفستان الجديد و تكحل عيناها البنيتان وترفع ضفائرها علي رأسها ثم تضع الحجابالأبيض على رأسها بينما يحضر جدى صبي صغير ليحمل السلة ويضعها في الحنطور وينطلقاسوياٍ إلي محطة القطار حيث يحملهما القطار علي السكة الحديد إلى القاهرة حيث يعيش الأخالأصغر لجدتي الذي يدرس بجامعة القاهرة.

لا. لم تحك لي جدتي قصة ما قبل النوم. لقد كان منزلها مزدحم دوماً، فلديها العديد من الأقارب والمعارف. يأتون ويتناولون الطعام ويثرثرون ويرون القصص، المضحك منها،والحزين والبذ ئ في بعض الأحيان. وكان في بعض الأحيان الهدف من الزيارة هو الشكوي أو طلب سلفة مادية أوطلب الصلح مع طرف أخر لا أعرفه. كانت تلك القصص الواقعية بالنسبة لطفلة في السادسة من عمرها خيالية تمام اً! كنت لا أفهم ما أسمع! لا أعلم من هم الضيوف؟ ولا أ علم عن من أو ماذا يتحدثون؟ كانت قصصهم التي يرونها تبدو غير حقيقية لأني لم أكن حاضرة وقت حدوثها. كل ما أذكره أن هؤلاء الضيوف تارة يفترشون الأرض وهما يتناولون الطعام بإيديهم، وتارة يأتي ضيوف يجلسون على الطاولة ويتناولن الطعام بالملاعق الفضية. وهناك بعض الضيوف كانوا يبقون حتي صباح اليوم التالي فتقوم جدتي أو والدتي بتحضير غرفة المسافرين!

كان لجدتي تسع أخوات وحين يزورها أحدهم كان يحل بالمنزل أجواء ليست كالأجواء التي أعدها، كان يتهلل وجهها كثيرا، وتتعالي الأصوات بالضحك حين يخبر أحدهم أطروفة. كان الطعام يزيد والفاكهة تزيد وأدور الشاي لا تتوقف. كنت أتهلل و أصيح وألعب مع أخواتي إبتها ج اً بينما أسمعهم حولي يتحدثون.

إلا أن قصة واحدة أثارت إنتباهي ولم أفهمها. وصرت من بعدها أخشي جدتي وبيتها وأخوتها. ذات يوم زار جدتي أخ لها طويل القامة، مرتفع الصوت ويناديها باسم جديد لم أسمعه من قبل. قال لها "يا فتحية". كنت أعتقد أن جدتي اسمها أم حمدي فقط! ولكن الجد المرسي كان يناديها "يا فتحية يا بنت الجنية". فضحكت وقالت

- أنت لسه فاكر الحكاية دي يا مرسي.
- ودي حاجة تتنسي يا بنت الجنية!
- يعني أحنا فعلا ولاد جنية ولا دي سمعة طلوعها الناس علينا هنا في البلد.
- لا مش عارف بقي، اللي اعرفه ان ولاد أبو عيانة نسلهم من نسل جنية.

أذكر أن جدك أحمد كان متزوج من جنية! منذ م ئات ي عام كان لا توجد كهرباء وكان الناس يعيشون على أضواء المصابيح. ولا يخرج أحد إلى الخارج في المساء إلا للحاجة الماسة. وذات مساء خرج جدك أحمد قاصداً أرضه فوجد بجانب حوض مياه الري فتاة جميلة تجلس وشعرها منسدل من كتفيها حتى لامس مياه حوض المياه. هال جدك كثيرا من جمالها وسألها عن سبب وجودها هنا في ساعة متأخرة من الليل في تلك العتمة! لم تجب على سؤاله ولملمت أطراف شعرها حول رأسها ومشت بعيد. كان المصباح الذي يحمله لا يسمح له أن يرى أين ذهبت تلك الفتاة المذهلة الجمال .لكن في اليوم التالي قرر الجد الأكبر أن يذهب إلى حوض المياه المجاور للأرا ض الزراعية عله يراها من جديد. وظل الحال هكذا عدة أسابيع وفى كل ليلة يحاول الجد الأكبر أن ينال منها كلمة واحدة وه ي لا تبادله الحديث! حت ى فاض به الأمر وقرر الاقتران بها فطلب منها عنوان منزل والديها حتى يتقدم للزواج منها.

للمرة الأولى سمع صوتها وهي تخبره بأنها يتيمة وتعيش بمفردها مع أخيها الذي يحبسها بالنهار بالمنزل لذلك تهرب هي في المساء للاستمتا ع بالماء والهواء العليل .ووصفت له عنوان المنزل بدقة وفي اليوم التالي ذهب جدي الأكبر أحمد لمنزل الفتاة كما وصفته له. لقد كانت تسكن في قرية بعيدة عن قريته ويقع منزلها على أطراف تلك القرية قطعها بحماره الذي بدء بالنهيق حينما وصل جدي أمام بيت العروس. فنهر جدي حماره على ما فعل، ثم طرق باب منزل العروس.
كان المنزل شبه فارغ من الداخل ولا يسكنه سوي الأخ بينما الأخت لم تخرج بالطبع لاستقباله. من فرط الخجل لم يسمح جدي لمقلاته أن تطوف لاستكشاف المنزل الفارغ العجيب. في الوقت ذاته تتفحصه مقلاتي الأخ الذي تملاها دهشة غير مبررة. بدون مقدمات طلب جدي الزواج من

أخته التي لا يعرف اسمها حتى الان! وافق الأخ، ولكن كان شرطه أن تتم إجراءات الزواج بدون عرس، فقد توفي والديهما ولا يريدا أي مظاهر للفرح. لكنه يستطيع ان يدعو الناس لمأدبة للعشاء حتى يستنن ي للأخ رؤية أهله وعشيرته. وقد كان!

زفت حورية إلى جدي بلا عرس، بلا شموع ولا زغاريد. ز فت لمنزل الجد على الهودج الذي يحمله جمل وحيد اً وخلفها يمتطى أخاها حصاناٍ أبيضاٍ فاتن المنظر. أما جدي فكان ينتظرها بشوق أمام المنزل مع أمه وأخواته وإخوانه. لقد كان الشرط واجب، لا مظاهر للفرح لان العروسة قد تيتمت من وقت ليس ببعيد. وما أن رفعت العروس الخمار الذي تختمر به حتى أفحمت الجميع بجمالها. وكأن القناديل التي تضيء المنزل زاد عددها مئات الأضعاف، وكأن مس أصاب الجميع وأنعقد لسانهم عن الحديث من شدة جمال العروس الفتان. فخرجوا على عجل كالمسحورين من المنزل. وما أن أختلى العريس بعروسه في ليلة الزفاف طلبت حورية من جد ي أحمد قبل أن يمسها أن يك ون بينهما عهداً، تعجب من قولها ولم يعلق! قالت له أنها تفضل البقاء في المنزل طوال النهار ولا تحب الخروج إطلاقاً لكن ما إذا حل المساء وعاد إلى المنزل. لابد من أن يطرق الباب ثلاث مرات. فإذا حدث وأن دلف إلى باب المنزل بدون الطرقات الثلاثة ،فسوف تفارقه!

بلهفة وافق على ما قالته وعاهدها على ذل ك، تلك العروس الجميلة التي تشبه نساء الجنة. لقد عاشاً معاً في سعادة ورزقهما الله من الأبناء أربعة عشر. ولم يعرف جدي الأكبر معني السعادة إلا بزواجه من حورية جدتي الكبرى. لكن أهله الذين أكلت قلوبهم الغيرة لجمالها الفاتن وأهل القرية الذين يتحرقون شوقاً لرؤيته ا لم يكونوا سعداء بوجودها في قريتهم. لقد كانت غريبة عنهم في كل شيء! لا تخرج للنساء لتثرثر معهم، لا تساعد زوجها في الزراعة، لا تسقى البهائم، لا تربي الطيور في الحظيرة، لا تخرج للسوق ولا تفتح الباب لساقي المياه ومع هذا تتوافر المياه ،الفاكهة، اللحوم بمنزل أحمد بلا انقطاع. كيف هذا! تسأل أهل القرية؟

ثم تهامس البعض عن أن زوجة أحمد تتسلل بالليل إلى المزارع! هل لها عشيق؟ هل تسرق لذلك لا تذهب للتبضع في الأسواق؟ لا من المؤكد أن لها عشيق تقابله بينما أحمد ينعس وسط الأطفال

بالمساء. أصبح أحمد وزوجته حديثا القرية. ربما الغيرة هي من دفعت النساء لإلقاء جدتي الكبرى بالسوء من فرط جمالها! وربما الحقد ملئ قلوب الرجال لأن أحمد تزوج من سيدة تتعامل مثل الأميرات اللواتي يسكنن قصور المحروسة بالقاهرة. تجاهلهم جدي في بادئ الأمر، لكن تجاهله للأمر جعل حديثهم يزيد. لقد تطاول أهل القرية وقالوا إن جدي أحمد يعلم بالأمر كله لان م ا يجلبه زوجته للمنزل من خيرات يجعله يغمض عينه عن سوء سلوكها. وأصبح جدي محاصر بهمسهم وكلماتهم في كل مكان. ذات يوم قرر أن يسأل زوجته إذا ما كانت تخرج بالمساء لمقابلة أحدهم؟

- هل تسألني لأن ك تصدق ما يقولون!
- لا أصدق! لكن ما السبب الذي يجعلك محور حياتهم!
- الغيرة والحقد، هما رزيلتان اللتان تخرج الأنسان من جنة الرضى إلى جحيم السؤال.
- بالله عليك. أخرجي لهم! دعيهم ينظرون إليك ويتحدثون لك. تلك الشائعات خلفها غيابك المستمر .
- يا أحمد لدينا من العيال أربعة عشر وأدبر أمور المنزل بطريقتي. أتركني كما أذا كنت تؤمن بإلهك!

لكن لم يغف للجد الأكب ر جفن في تلك الليلة، وتنمر من حوله في الصباح جعله يعقد العزم على تنفيذه خطته. قبل أن يحل المساء ذهب جدي على حماره من أرضه يقصد منزله. ثم بهدوء تسلل من الجانب الخلفي للمنزل وصعد النخلة المجاورة لسور المنزل ثم هبط في ساحة البيت. فوجد ما لم يصدقه عقله. لم يكن هذا بيته الذي يعرفه. لقد تحول المنزل لغرفة كبيرة بها طاقات[2] على حائط وفى كل طاقة يجلس ولد من أولاده. نصفهم السفلي ثعبان ونصفهم العلوي أنسي. فرك عينه مرة وأثنان وتتجول ببصره كي يتأكد من أنه بمنزله. حت ى ظهرت حورية بالمظهر ذاته ،نصفهم السفلي ثعبان عظيم ونصفها العلوي كما هو! نظرت إليه بغضب متسائلة:

[2] جمع طاقة وهي حفرة في الحائط يوضع بها قناديل الضوء

- لم تستطي ع أن تتغلب على فضولك يا أحمد. هل ظننت أني أخونك ؟
- ما الذي يحدث! من أنت؟ وماذا فعلتي بأبنائي ؟
- أنا جنية يا أحمد. ألم تفكر للحظة بإني ليست أنسية! هل تستطيع بنات الأنس أن توفر لك من الخير م ا أوفره لك. وظننت أنك ستصون العهد وأعيش معك حتى تفني وأذهب بأولادي تحت الأرض. لكنك لم تصن العهد. ظننت أن الأنس منذ أن حملوا أمانة السماوات والأرض أن يحملوا عهد صغير بين المرء وزوجه.
- أنا لا أفهم! من أنت يا حورية؟ ثم نظر على أبنائه الذي يسكنون الطاقات على الحائط ثم خر على الأرض يبكي.
- أنت من قطعت العهد لا أنا! أبكي لأن ك لن ترانا مرة أخري!
- لا لا تتركيني يا حورية. أن لم أعرف السعادة إلا معك!
- وأنا أحببتك يا أحمد ، ولكن العهد يقتضي أن أتركك. ورحمته بك أترك لك البنين وأخذ البنات.

وهكذا جمعت جدتي الكبرى بناتها الجنيات الصغيرات حول يدها ثم أشارت بديها إلى الأرض فانفتحت وأبتلعتها . وعاش جدي حزين من أبنائه الذكور ولم يتزوج بعد حورية أبدآ.